الكتابة في فضائل بيت المقدس ودورها في الحركة المعرفية وصناعة الوعي في مواجهة الحروب الصليبية

محمد علي بيود

الجزائر

مستخلص

تحاول الدراسة التعريف بفن الكتابة في فضائل بيت المقدس وبدايات ظهوره وحركة تطوره، مع استقراء لأهم ما كتب فيه ومضامينها، مع الرد على شبهات المستشرقين التي يدخلون من هذا الباب للتشكيك في مكانة بيت المقدس، مع دراسة دور هذه الكتابة المواكبة للحروب الصليبية في صناعة وعي جماهيري يؤسس لخلفية فكرية تساند معارك الصراع الإسلامي والصليبي.

الكلمات الأساسية: بيت المقدس، كتب الفضائل، الصليبيين، الصحابة، الفتح المعرفي، العلماء، الجهاد، الاستشراق الصهيوني.

تمهيد

يوجد في التراث العربي مؤلفات كثيرة اختصت بالفضائل، وتناولت فضائل الأشخاص وفضائل البلدان، وكان التأليف في فضائل الأشخاص قد سبق التأليف في فضائل البلدان، وكلا الأمرين من ابداعات الفكر الإسلامي، وكان يقابلها في الجاهلية التحدث بأمجاد القبائل وأيامها ومفاخرها.[1] تعد الكتابة في فضائل المدن نوعاً من الكتابة التاريخية، إذ يذكر المؤلف أحوال المدينة جغرافياً وسياسياً والمراحل التاريخية التي مرت بها مع ذكر محاسنها. وكان للكتابة في فضائل البلدان وافع دينية أو سياسية أو عصبية، وبدأت المنافسة في التأليف في فضائل المدن كالبصرة والكوفة، ومكة والمدينة، ودمشق وبغداد، أو دمشق والقاهرة، وبين الأندلس والمغرب. تعد الكتابات الأولى استندت لدوافع دينية

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
isravakfi.org

ترجع لأحاديث الرسول الكريم في فضل الشام مثلا أو مدينته على صاحبها أزكى صلاة وسلام، ثم كتب عن مصر على اساس ذكرها بالقران بضعا وعشرين مرة، حتى أن ابن حزم عندما ألف رسالته في فضل الأندلس حاول أن يجد لها فضيلة دينية يفتتح بها كتابه.[2]

ثم تطورت الدوافع وتحولت من الدينية للحضارية فنجد الخطيب البغدادي كتب في تاريخ بغداد منوها بدورها ومنازلها ومحالها ومساجدها، وقبله ابن حزم (ت456هـ) في التفاخر بكثرة علماء الأندلس ولا شك أن لكتابة عموما لها صلة بالفتوحات في صدر الإسلام، إذ أصبح لهذه المدن مكانة في نفوس فاتحيها وارتبطت بمن استشهد أو دفن فيها من الصحابة، كما أن معرفة طبيعة المدينة و هويتها ضرورة لتوطين السكان فيها وسياستها، فيذكر ياقوت الحموي أن الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–كان يطلب من قواده أن يكتبوا له عن أحوال المدن أو الأقاليم المفتوحة كي تكون لديه صورة واضحة عن تلك المدينة أو ذلك الإقليم.[3]

بداية الكتابة في فضائل بيت المقدس

ومن أوائل الكتب التي تناولت فضائل المدن "كتاب في فضائل مكة" الذي ينسب إلى الحسن البصري (ت 110هـ/ 728 م)، و"أخبار أهل البصرة أو تاريخ البصرة" لعمر بن شبه (ت162 هـ/ 778م) ولم يصلنا الكتاب، وأورد حاجي خليفة اسم كتاب خاص بفتح بيت المقدس وهو "فتوح بيت المقدس" لأبي حذيفة إسحاق بن بشر القرشي (ت 206 هـ/821 م). جاء الحديث عن بيت المقدس بين ثنايا كتب التاريخ الأخرى من مثل: فتوح البلدان للبلاذري في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وفتوح الشام للواقدي في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وتاريخ اليعقوبي في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي وغيرها.[4] ثم جاءت بعدها الكتابة المستقلة في فضائل بيت المقدس وفلسطين. ويدعى مستشرقون على عاداتهم في بحث التراث الإسلامي في إشارة إلى أن المسلمون لم يكتبوا في فضائل بيت المقدس بشكل مبكر، فذكر إسحق حسون في تحقيقه لكتاب

"فضائل بيت المقدس" لأبي بكر محمد بن أحمد الواسطي (ت ق5هـ/ق 11م) أنه اول كتاب أول كتاب مستقل وصلنا عن فضائل بيت المقدس.

وقد ذكر الباحث شهاب الله بهادر في كتابه: "معجم ما أولف في فضائل المسجد الأقصى من القرن الثالث هجري إلى نكبة فلسطين"، 12 مصنف كتب في فضائل بيت المقدس قبل كتاب الواسطي الذي حققه اسحق حسون منها 9 مستقلة وليست أجزاء أو فصول تتكلم عن فضائل بيت المقدس وفلسطين، أهمها: كتاب فتوح بيت المقدس لأبو حذيفة إسحاق بن بشير البخاري (../206هـ) ومن أهمها أيضا: كتاب من نزل فلسطين من الصحابة لموسى بن سهل الرملي (../261هـ) وكتاب فضائل بيت المقدس أبوعبد الله الفضل بن عبيد الله الهاشمي المقدسي المتوفي منتصف القرن الرابع الهجري.[5]

وحسب ما ذكرنا نجد أن الكتابة المستقلة لفضائل بيت المقدس بدأت من القرن الثالث الهجري أي قبل حوالي ثلاث قرون تقريبا من التاريخ الذي ذكره المستشرق اسحاق حسون، ومنه فلا معنى لدعواه ومن معه حين قال: إن علماء المسلمين كانوا على خلاف فيما بينهم بشأن مكانة بيت المقدس، وهذا وحده كاف لعدم التشجيع في الكتابة المستقلة في هذا الموضوع.[6]

أهم ما كتب في فضائل بيت المقدس

لقد نالت الكتابة في فضائل البلدان حصة كبيرة لا يستطيع محص أن يحصيها، وتربع على علم الكتابة في فضائل البلدان بلاد بيت المقدس التي فازت باهتمام الوحي أولا أم باهتمام الأمة للنواز الشديدة التي حلت بها وكان دافعا أساسيا للكتابة في فضلها أيضا، ومهما كتب خلال التاريخ الطويل فلن يستطيع ان يؤدي حقها المعلق في أعناق الأمة جمعاء. إن حركة الكتابة في فضائل بيت المقدس كانت مثار شبهات حاول المستشرقون بثها، موهمين أن سبب ما ادعوه من قلة الكتابة في فضلها يرجع إلى أن مقامها ذاته لا يكفي ولا يجذب العلماء للكتابة في فضلها. وهي شبهة مردودة لنقاط:

1. أول مصدر ذكر فضائل بيت المقدس هو كتاب الله تعالى الذي شرف المكان في سورة الإسراء برحلة النبي الكريم، وشرفها في مواطن عدة في سورة التين وغيرها التي أقسم رب العزة بها وجلاله لا يقسم إلا بعظيم.
2. كتب الكثير عن فضائل بيت المقدس والشام وهي مبثوثة بشكل واضح في كتب السنة النبوية، وفي إجزاء من التاريخ والتفسير والفقه والأدب والشعر، وفي كثير من هذه الكتابات تكون مقرونة بمكة والمدينة، لا يشترط ذكرها استقلالا.
3. احصى الدكتور كامل جميل العسلي في كتابه مخطوطات فضائل بيت المقدس 49 كتابا[7]، كما احصى شهاب الله بهادر 220 كتاب ومخطوط عن فضائل بيت المقدس من القرن الثاني هجري حتى القرن الرابع عشر.[8]
4. ينبغي الإشارة لحملات النهب التي نالت التراث الإسلامي في تاريخ أزماته، فالمعروف حاليا ان ما بين ايدينا من التراث هو ما وجد وليس ما كتب، فثم مكتبات خاصة لا يعرف كنوز مخطوطاتها بعد، كما أن هجمات أعداء الأمة أتلفت الكثير مما خطته انامل علمائنا، فتذكر الباحثة عائشة عبد الرحمن: "*وعكف المجاهدون بعد الظفر في معركة عين جالوت يفتشون بين الخرائب عن ذخائر تراثنا في بيت الحكمة والمدرسة النظامية والمدرسية المستنصرية وغيرها من دور العلم الشامخة فإذا النار قد اكلت منها حتى سبعت فقذف بالباقي إلى النهر، فيقال ان الكتب سدت مجرى دجلة وجاز الناس عنها كأنها جسر معقود*"، ويذكر المؤرخون أن ما أتلفه الصليبيون في طرابلس وحدها بثلاثة ملايين مجلد، وفي غرناطة أحرق مليون كتاب في يوم واحد، وهو تدمير منظم للثقافة والعلوم. ولعل الاستعمار الحديث كان أرحم من التتار والصليب، فهو لم يتلف في كثير من الأقطار بل نهبها وسرقها، وهو أخف ضررا فعلى الأقل هي موجودة في بقاع الدنيا، ومتاحف أوروبا.

وبالتأمل لأهم ما كتب في فضائل بيت المقدس نسجل الملاحظات الهامة التالية:

1. كثير من المصنفات التي كتبت في فضائل الشام هي في الأصل فضائل مقدسية، وإن ما ورد من فضائل بيت المقدس من نصوص الوحي هي ذاتها التي اتخذت فيما بعد دليلا على فضائل الشام ذاتها، حتى ذابت فضائل بيت المقدس في عناوين شامية غير مقدسية، ورغم أن بيت المقدس جزء من الشام، بل لعل الشام ما نالت الفضل العظيم الذي تتمتع به إلا

لوجود بيت المقدس بها خاصة، وبالتتبع نجد أن كل ما ذكر في فضائل الشام ينطبق على بيت المقدس في حين أن العكس ليس صحيح ولا ينطبق، وهو ما يسميه ويناقشه الباحث جواد بحر النتشة بذوبان مكانة بيت المقدس في مكانة الشام عن كثير من العلماء.[9]

2. التأليف في فضائل بيت المقدس ليس خاصا بأهل بيت المقدس فقط، بل إن أول من كتب في فضائل بيت المقدس بشكل مستقل ليس مقدسيا بل هو اسحاق بن بشر البخاري (ت 206هـ) ونجد فضائل القدس لابن الجوزي البغدادي (ت 597هـ)،" الفتح القسي في الفتح القدسي" للعماد الأصفهاني (ت 597هـ/ 1201م) وغيرهم كثير، وهؤلاء الذين زاروها فعلا وهم في طريقهم إلى الحج عادة للتبرك بمقدساتها أو للإقامة فيها، أو لطلب العلم في جامعتها بالمسجد الأقصى التي كان يؤمها طلاب العلم ويعلم فيها أشهر العلماء، وأصحاب هذه الطائفة عددهم كبير جدا، تزخر كتب التراجم وكتب الفضائل بأسمائهم، بمعنى أن مدينة بيت المقدس كانت ملتقى دوليا تقصد من شرق العالم وغربه على السواء.

ومنهم أيضا ابي اسحاق ابراهيم المكناسي من رجال القرن السابع هجري الذي كتب مخطوطة فضائل بيت المقدس من 61 ورقة،[10] وتجدر الملاحظة هنا أن بعض هذه الشخصيات المغربية التي زارت القدس، عادت إلى أوطانها بعد ذلك لتأدية رسالتها العلمية، بينما بقي البعض الآخر في بيت المقدس مفضلا أن يموت ويدفن فيها من باب الزهد والتوبة اعتقادا منهم بأنها ستكون ساحة القيامة والحشر كما ورد في بعض الأحاديث النبوية بأن بيت المقدس أرض المحشر والمنشر وأن الصلاة فيه بألف صلاة فيما سواه. منهم على سبيل المثال لا الحصر نصر الدين محمد العلمي المغربي الذي يذكر ابن خلكان في تاريخه أنه رحل إلى بيت المقدس وأدركته المنية هناك في شوال سنة 656هـ/1258م صاحب كتاب المستقصى في فضائل المسجد الأقصى.[11]

3. بعض من كتب في فضائل هذه البقعة الطاهرة من غير أهل بيت المقدس كتب عنها ولم يرها أصلا ولم يكتب له زيارتها، وهذا يدل على عمق التعلق واصالة الانتماء ومكانة المكان في نفوس الأمة، ومن هؤلاء المغاربة فنجد منهم:

أحمد محمد بن عبد ربه الأندلسي، صاحب كتاب العقد الفريد الذي عاش في قرطبة ومات بها عن عمر يناهز الثمانين سنة 328هـ/ 940م ولم تعرف عنه رحلة على غير بلاد الأندلس، ويقع كتاب العقد الفريد في ثمانية أجزاء؛ وفي الجزأين الخامس والسابع منه، نجد وصفا

مفصلا عن فضائل بيت المقدس وآثار الأنبياء.[12] ونجد منهم أبي إسحاق إبراهيم بن يحيي بن أبي حفاظ المكناسي، من رجال القرن السابع الهجري (13م). كتب رسالة بعنوان "كتاب فيه فضائل بيت المقدس" نص فيها على أنها جمع وليست مشاهدة.[13]

وهكذا نرى مما تقدم أن أصحاب هذه الفئة، كانوا من العلماء الذين لم تساعدهم الظروف للسفر إلى بيت المقدس فكتبوا عنها وكأنهم أرادوا بذلك نقل بيت المقدس إلى المغرب والأندلس كي يسعد برؤيتها وتصورها مواطنوهم الذين لم يتمكنوا مثلهم من السفر إليها. ويجدر الإشارة ان المغاربة قد كتبوا كثيرا في فضائل بيت المقدس وهم ثلاثة أقسام: قسم زارها ومنهم من مات بها، وهؤلاء كتبوا مصنفات مستقلة أو أجزاء. قسم كتب عنها ولم يزرها بل جمع ما سمع ليطفئ لوعة الشوق لزيارة الاماكن وليقرب المشهد لخيال المغاربة. وقسم من الفقهاء آثر أن يكون مجاهد بالسيف والسنان لا القلم واللسان، فانظم لجيوش المجاهدين ضد الحملات الصليبية ومنهم الإمام سيدي أبومدين شعيب بن الحسن التلمساني، ويذكر العماد الأصفهاني أن من بين الشخصيات المغربية الجليلة التي صاحبت صلاح الدين الأيوبي في جهاده للصليبين في الشام، الأمير عبد العزيز بن شداد ابن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي، وكان جده تميم بن المعز الصنهاجي ملكا على إفريقية والقيروان من سنة 453 إلى 501هـ (1061–1107م).

4. بعض من كتب في فضائل بيت المقدس كان من الرحالة الذين وصفوها ومنهم ابن بطوطة الذي زارها أكثر من مرة، ومنهم القاضي عبد الله بن العربي الذي رحل في عهد المرابطين صحبة ولده القاضي أبي بكر سنة 485هـ وكذلك الرحالة في عهد الموحدي وهو الشريف الإدريسي السبتي 485هـ صاحب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق.[14]
5. بعض من كتب في فضائل بيت المقدس قرنها بفضائل مكة والمدينة، في ربط بين المساجد الثلاث ومن هؤلاء أبوشامة المقدسي عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم (599-665هـ) في كتابه جامع أخبار مكة والمدينة وبيت المقدس شرفن الله تعالى، والإمام محمد بن اسحاق المكي الحنفي الخوارزمي(../728هـ) في كتابه إثارة الترغيب والتشويق إلى المساجد الثلاثة وإلى البيت العتيق. بل نجد بعض الكتب التي وضعت أصلا في فضل مكة وزائرها وضعت بابا خاصا يذكر فضائل بيت المقدس تحديدا، فلقد جعل الحافظ أبو العباس أحمد بن عبد الله محب الدين الطبري ثم المكي الباب الأربعين من كتابه القرى لقاصد أم القرى تحت عنوان:

في فضل الحرمين وبيت المقدس، وهذا يدل على ان فضائل بيت المقدس والكتابة فيها ليس شرطا أن ترد تحت عنوان محدد.[15]

6. مما يؤسف له أن الكثير من مخطوطات ما كتب في فضائل بيت المقدس رأت النور بأيدي المستشرقين وليس الباحثين المسلمين المنصفين، وقد ذكر الأستاذ محمد ابراهيم أن من بين ثلاثة وعشرين شخصا ممن نشروا بعضا من مخطوطات فضائل بيت المقدس أو أعدوا دراسات عنها، تبين ان العرب أقل النسب، إذ كان عددهم ستة أشخاص، بينما الباقي أجانب أغلبهم من اليهود.[16] ويعلق الباحث مشهور حسن آل سلمان على اهتمام اليهود بالذات بهذه المخطوطات: "*ولا بد من الإشارة إلى أن اليهود نشروا كتبا كثيرة في فضائل الأقصى، ولديهم حب وولع في اقتناء الكتب من فضائل البلدان، ولاسيما مكة والمدينة، ولديهم دراسات عن مشاعر المسلمين نحو مقدساتهم من خلال كتب الفضائل، كي يتبين لهم الخط البياني لنمو المشاعر أو ضمورها استعدادا للمعركة*".[17]

7. وقد نشطت حركة التأليف في كتب الفضائل بصورة واضحة عندما انتزعت بيت المقدس من المسلمين ثم أعادها صلاح الدين الأيوبي سنة 583هـ/1187م وانعكست فيها نشوة التحرير. وبقيت بيت المقدس مهددة بالاحتلال الفرنجي، والمشاعر حولها متأججة طيلة هذه الفترة وبعدها، ولم ينقطع التأليف في فضائل بيت المقدس بعد القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وينبغي التنبه هنا إلى ان الحروب الصليبية زادت من نشاط الكتابة في فضائل بيت المقدس وليست مرحلة البداية لهذا الفن، حتى لا نقع في تأييد لرأي الاستشراق الذي يعتبر أن هذا الفن بدأ مع الحروب الصليبية في تعريض أنه لا قداسة لبيت المقدس عند المسلمين قبل ذلك، وإنما ما كتب كان ردة فعل فكري دفاعي، ويسوقون البراهين لإثبات عدم قدسية بيت المقدس.[18] فبيت المقدس ليست مقدسة عند المسلمين عبارة أطلقها العديد من المستشرقين أمثال جولد تسيهر، والباحث اليهودي اسحاق حسون العضو في معهد الدراسات الأسيوية والإفريقية في الجامعات العبرية– في المقدمة التي وضعها في تحقيقه لكتاب فضائل بيت المقدس لأبي بكر الواسطي، وكذلك البروفيسور أمنون كوهين في كتابه القدس في دراسات في تاريخ المدينة، وكتابات اليهودي كيستر، وكذلك الموسوعات الغربية التي تشكك في مكانة بيت المقدس وتتبنى وجهة نظر اليهود وتدافع عنها.[19] والحقيقة أننا الأن أمام حرب فكرية شاملة ميدان إحدى معركتها كتب فضائل بيت المقدس.

مضمون وخصائص الكتابة في فضائل بيت المقدس

من خلال قراءة بعض مواد كتب الفضائل، نتبين محتواها والمواضيع التي تتكرر فيها دون نسبة أي موضوع إلى كتابه أو مخطوطه بل نوردها بشكل عام:

- بناء بيت المقدس.
- فضل بيت المقدس.
- فتح المسلمين لبيت المقدس.
- فضل صخرة بيت المقدس.
- من دخل بيت المقدس من الأنبياء والصحابة والتابعين.
- في زيارة الخليل عليه السلام.
- تضاعف الحسنات والسيئات في بيت المقدس.

فعموما كتب فضائل بيت المقدس لم تقتصر على العنصر الديني وحده من آيات وأحاديث فحسب، بل شملت المعلومات التاريخية وما ورد فيها عن بناء بيت المقدس والفتح العمري، كما تصف المعمار والمحاريب والأبواب وغيرها، وتترجم للصحابة الذين ماتوا أو عاشوا بها، وترد بها آثار وأخبار الإسرائيليات، وما تناقله الناس عن بعض العجائب ببيت المقدس. أما المصادر التي اعتمد عليها مؤلفو كتب الفضائل في الحصول على مادة كتبهم، فهي:

1. **القرآن الكريم**: لم يقتصر مؤلفو كتب الفضائل على آية الإسراء الأولى المتعلقة بمكانة بيت المقدس، بل أضافوا إليها آيات رأى فيها المفسرون في أقوال لهم أنها تتعلق بمدينة بيت المقدس مثل الآية 14 من سورة النازعات ﴿فإذا هم بالساهرة﴾، فقالوا: الساهرة جبل بجانب بيت المقدس[20]، والآية 36 من سورة النور ﴿في بيوت أَذن اللهُ أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾، فقالوا :إن المقصود هو مسجد بيت المقدس.[21]
2. **السنة النبوية**: لم تكن الأحاديث التي تداولها مؤلفو كتب الفضائل على مستوى واحد من الصحة، فشهاب الدين المقدسي في كتابه "مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام"[22] صرح بأنه بيّن حال أحاديثه وآثاره غالباً، الصحيحة، والضعيفة، والموضوعة، والحسان، بل وغيره أورد أحاديث كتابه مجملة دون بيان ولكنها وردت لشيوعها وتداولها بن الناس، باعتبار أنها تدخل في فضائل الأعمال وليس في الواجبات والعقائد والخلاف في ذلك مشهور في حكم الأخذ بالضعيف.

غير أن ما يستدعي التنبه أن كثير من كتب الفضائل بالغت في الأخذ بالإسرائيليات وأخبار القصاص، النقل عن كعب الأحبار ووهب بن منبه، فقد وجدوا فيها نقلاً عنهما روايات فيها غرابة ومادة خصبة لتشويق مستمعيهم وهو ما كان مدخل للمستشرقين لطرح فكرة أن قداسة بيت المقدس مصنعة وأن الهالة القدسية التي تعاظمت لبيت المقدس ولفلسطين كانت بسبب الموروثات الإسرائيلية والمسيحية حول بيت المقدس. فيذكر سيفان إلى حد الادعاء بأن قدسية بيت المقدس اعتبرت في أعين المسلمين بدعة استمدت جذورها من اليهود، والمسيحيين الذين استمروا في تقديسهم لبيت المقدس، وحاولوا إدخال ذلك إلى التقاليد الإسلامية.[23] وهذه الظاهرة وهي كثرة النقل للإسرائيليات تثير تساؤلات حول الدّقة العلمية في كتب الفضائل، كما يفضي إلى التكرار في المعلومات المنقولة دون تمحيص وتوّثق من الروايات، ودون تفنيد، مما يوقع الباحث في اضطراب عند محاكمة مؤلَّف أو مؤلِّف، ويجعل بعض الروايات والحقائق غائمة وعامة.[24] على أن لا نقع بعد الذي ذكرناه من إقحام الأحاديث الموضوعة والخرافات الوضيعة في اخراف إهمال هذا الفن، فالأحاديث الصحيحة والمحتملة في أبواب الفضائل بالغة الكثرة، فكلما مد الباحث يده اغترف، ولن تخرج يده خاوية أبدا.[25]

دور الكتابة في فضائل بيت المقدس في التعبئة الجماهيرية ونشر الوعي في مواجهة الحروب الصليبية.

قبل الحديث عن دور الحركة العلمية في المواجهة الإسلامية للحروب الصليبية، وقبل التعرض لأثر كتابات العلماء في تلك الفترة من بينها كتابات فضائل بيت المقدس، نتكلم عن دور رجال الحركة المعرفية يومها.

أ- العمل المسلح الجهادي لرجال الحركة العلمية

لم يقتصر دور العلماء على حث الناس والسلاطين على الجهاد ضد الأعداء من خلال الخطب وتأليف الكتب والمصنفات؛ بل تعدى هذا إلى المشاركة الفعلية في ساحات القتال وقيادة المعارك والوقوف بجانب القادة العسكريين في وسط المعارك، وبث الحماس الجهادي لدى المقاتلين في وسط المعارك من خلال بيان عظمة الشهادة في سبيل الله والتذكير بعهد الفتوحات الإسلامية زمن عهد النبي صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين. فمنذ أن وطئت أقدام الصليبيين أرض

بلاد الشام بادر العلماء والفقهاء والقضاة بالدفاع عن الأرض إلى جانب المقاتلين، فقد تجند الفقهاء والشعراء كمتطوعين في جيش صلاح الدين مما يعني مشاركتهم في المقاومة الشعبية وبرز دورهم في فتح مدينة بيت المقدس، وهذا ما يؤكده ابن كثير[26] بأنه عندما عزم صلاح الدين على فتح القدس الشريف "قصده العلماء والصالحون تطوعاً". وما تؤكده المصادر من أنه وبعد انتهاء المعركة فإن القاضي ابن أبي عصرون وهو من الفقهاء قاد الأسرى الصليبيين من الملوك والأمراء ودخل بهم دمشق وهو يحمل صليب الصلبوت منكساً.[27]

ومن النماذج نجد مشاركة الشيخ أبو عمر بن قدامه المقدسي(ت607هـ/1210م) وأخوه الشيخ موفق الدين ابن قدامه(ت 620هـ/ 1223م)، في المعارك التي خاضها صلاح الدين ومنها فتح بيت المقدس، قال عنهما ابن كثير: وكان هو وأخوه وابن خالتهم الحافظ عبد الغني(ت 600 هـ/ 1203م)، وأخوه الشيخ العماد لا ينقطعون عن غزاة يخرج فيها الملك صلاح الدين إلى بلاد الفرنج وقد حضروا معه فتح القدس والسواحل وغيرها ومن ناحية أخرى فإن الشيخ أبو محمد عبد الله بن عثمان بن جعفر اليونيني المتوفى سنة 617هـ/1220م، قد قيل عنه أنه لم تفته غزوة من الغزوات بين المسلمين والصليبيين إلا اشترك فيها ولقد لقب بأسد الشام.[28] كما شاركوا الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون في حروبهم ضد الصليبيين.

ب– المشاركة في أعمال التموين والإمداد لصناعة عزيمة نفسية ودعم معنوي للجنود

بل شارك الفقهاء ورجال الحركة العلمية حتى في الأعمال الشاقة وأعمال التموين والإمداد دون وضع فوارق فشاركوا في تحصين المدن الشامية من خلال بناء الأسوار وحفر الخنادق، ويدلنا على ذلك ما ذكرته المصادر الشامية من أنه عندما شرع السلطان صلاح الدين في تحصين بيت المقدس وعمارة أسواره، وحفر خنادقه سنة 587هـ، عمل السلطان في ذلك بنفسه وشاركه في نقل الحجارة "*جماعة خواصه والأمراء، واجتمع لذلك العلماء والقضاة والصوفية والأولياء، وحواشي العساكر والأتباع وعوام الناس، فبنى في أقرب مدة ما يتعذر بناؤه في سنين*".[29]

أما الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت 561هـ/ 1165م) فقد كان مدرسة في الإصلاح الاجتماعي أسوة بما قام به الإمام أبو حامد الغزالي، فقد كانت المدرسة القادرية في بغداد والتي كان يترأسها الشيخ عبد القادر تستقبل أبناء النازحين الذين فروا من وجه الاحتلال الصليبي، ثم يقوم الشيخ بإعدادهم ثم إعادتهم إلى مناطق المواجهة الدائرة تحت القيادة الزنكية.

ج- دور العلماء الرسمي والدبلوماسي مع الجهات الحاكمة والتحريض الإعلامي للشعوب

لقد أثار استيلاء الصليبيين على بيت المقدس المسلمين، وخلق ذلك الاحتلال توتراً في العالم الإسلامي "*وانزعج المسلمون في سائر ممالك الإسلام بسبب أخذ بيت المقدس غاية الانزعاج*"[30] قاد زعامته الفكرية الشعراء والكتاب والعلماء والفقهاء، الذين جردوا حملة إعلامية لإثارة الناس ودفعهم لتحرير الأرض المقدسة، وبدأت دعوة الجهاد تسري بين الناس في العالم العربي الإسلامي بسرعة كبيرة[31]، وفي رحم الحركة الفكرية التي قادها المفكرون تبلورت اتجاهات المقاومة الشعبية ضد المحتلين الصليبيين، فخرجت من دمشق خاصة وبلاد الشام عامة سنة 492هـ/1099م جماهير شعبية حاشدة بزعامة القاضي زين الدين أبي سعد الهروي[32] إلى بغداد ليشكلوا رأي عام ضاغط على الحكام المتخاذلين "*فأوردوا كلاماً أبكي العيون وأوجع القلوب، وقاموا في الجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا، وذكروا ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد*"،[33] وبناءً على ما سبق "*ندب الخليفة ببغداد الفقهاء إلى الخروج في البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد، فخرج الإمام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي، وغير واحد من أعيان الفقهاء وساروا في الناس*"، ليحرضوهم على المقاومة.[34]

وقد كان لحجة الإسلام أبو حامد الغزالي (ت505هـ/ 1111م)، دور بارز في حث الحكام على ضرورة الجهاد، فعندما علم أن السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي التركي تولى الحكم، أرسل له كتاباً ومراسلات تحثه على الجهاد والتصدي للصليبيين.

د- دور العلماء في التصدي للحروب الصليبية بالكتابة والتأليف

اندفع العلماء في تلك المرحلة إلى تثقيف المجتمع الإسلامي آنذاك بثقافة الجهاد في سبيل الله والقيام بواجب الوقوف إلى جانب قادة الجهاد ضد الخطر الصليبي وبسبب قناعتهم بأن الأعمال العسكرية والسياسية لا تكن ناجحة مؤثره إلا بدعم فكري وعقائدي وعاطفي وديني، ولهذا انتشر ونشط في هذه المرحلة نمطين من الكتابات التي ساهمة في صناعة وعي جماهيري عام يهدف للتصدي للحروب الصليبية وهما:

- الكتابة في فضائل وفقه الجهاد
- الكتابة في فضائل بيت المقدس والشام

فمن الصنف الاول نجد الخطيب أبو الحسن على بن مسلم السلمي الدمشقي (452– 533هـ/ 1060–1138م) الذي شهد وهو في أواخر عمره غزو الصليبيين للشام، فخصص دروسه في جامع بني أميه الكبير للحديث عن فضائل الجهاد، تحريضاً لأهالي الشام على مقاومة المحتلين، وألف كتاباً في اثني عشر جزءاً أسماه "كتاب الجهاد"[35]، ذكر فيه معارك الإسلام الأولى ودور المجاهدين، مع ذكر الآيات والأحاديث النبوية التي تحض على الجهاد وتبين مكانة المجاهدين.[36]

ولم يكن السلمي وحده من ركز في مؤلفاته على الجهاد وبيان فضائله، ولكنه يعتبر بداية من افتتح هذا التوجه نحو هذا النوع من المؤلفات، لأن طبيعة العصر وما حدث فيه من تحولات سياسية جذرية بعد احتلال الصليبيين لأجزاء كبيرة من بلاد الشام أثرت حتى على نتاجات ومؤلفات الفقهاء الذين ركزوا في طروحاتهم الفكرية ونتاجاتهم العقلية على الجهاد وفضائله وذلك من أجل شحذ هم السكان المحليين في بلاد الشام لمقاومة الصليبيين، وينطبق ذلك بصورة واضحة على ابن عساكر الذي ألف كتاباً احتوى أربعين حديثاً عن فضائل الجهاد، وطاهر بن نصر الله بن جهبل المتوفى سنة 596هـ/1199م الذي ألف لنور الدين محمود زنكي كتابا في فضل الجهاد[37] ولشغف نور الدين بالجهاد وضع فيه كتاباً بقلمه،[38] وذكر ابن شداد أن حب الجهاد قد استولى على قلب صلاح الدين ولهذا جمع له ابن شداد كتاباً جمع فيه كل آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث روي في فضله، فأعجب الناصر صلاح الدين بكتاب ابن شداد فقربه وألحقه بخدمته و ولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف وهو أول قاضي ولي القدس بعد فتح صلاح الدين لها.[39]

كما نجد التأليف في فضائل بيت المقدس انتشر بشكل واسع، وكثرت مجالس السماع والإسناد لهذه الكتب والتحديث بالفضائل بغية تنبيه عموم الأمة للبقعة الطاهرة وأهميتها من أجل خلق وعي جماهيري عام يمهد لمراحل قادمة من المواجهة ويبين حسون بأن الأحاديث ف فضائل بيت المقدس وفلسطين كانت معروفة، ورائجة في بلاد الإسلام عامة، وبلاد الشام خاصة. وقد كانت مدينة دمشق، وغيرها من مدن الشام في القرن الرابع والخامس للهجرة مركزاً لرواية هذه الفضائل، ومن دلائل ذلك روايات أبي المعالي المشرف بن المرّجى الذي ذكر في أسانيده بصورة لا تترك مجالاً لشك.[40]

وننقل صورة وصلتنا رواية عن تأثير هذه المجالس وهذه المصنفات في متلقيها: وهي ما قام به الشيخ الفقيه الواعظ سبط ابن الجوزي[41]، بأمر من الناصر داود أن يعقد مجلساً للوعظ يذكر فيه

فضائل بيت المقدس، وماحل بالمسلمين من تسليمه إلى الصليبيين وقد وصف سبط ابن الجوزي ذلك المجلس وردة الفعل الشعبية الإسلامية على تسليم الكامل بيت المقدس للصليبيين بقوله: بأنه عندما وصلت الأخبار بذلك *"قامت القيامة في جميع بلاد الإسلام، واشتدت العظائم، بحيث أقيمت المآتم، وأشار الملك الناصر داود أن أجلس بجامع دمشق، وأذكر ما جرى على البيت المقدس، فما أمكنني مخالفته، ورأيت من جملة الديانة الحمية للإسلام موافقته، فجلست بجامع دمشق، وحضر الناصر داود، على باب مشهد علي، وكان يوماً مشهوراً، لم يتخلف من أهل دمشق أحد"* [42]، وأورد كلاماً كثيراً عن هذه الحادثة العظيمة والمصاب الجلل الذي أصاب الأمة.

وقد وصف ابن واصل[43] والذي حضر مجلس سبط ابن الجوزي بأنه *"كان مجلساً عظيماً... ارتفع ضجيج الناس وبكاؤهم، فلم ير إلا باك أو باكية"* . وقد نشطت حركة التأليف في كتب الفضائل بصورة واضحة عندما انتزعت مدينة بيت المقدس من المسلمين ثم أعادها صلاح الدين الأيوبي وانعكست فيها نشوة التحرير. وبقيت بيت المقدس مهددة بالاحتلال الفرنجي، والمشاعر حولها متأججة طيلة هذه الفترة وبعدها، ولم ينقطع التأليف في فضائل بيت المقدس بعد القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وفي عصري الأيوبيين والمماليك وحتى العصر الحديث.

الخاتمة ومعها النتائج والتوصيات:

وتأتي ثمرة البحث في دراسة التراث وتحويله لمنهجية تحريرية، فإذا كانت الكتابة في فضائل بيت المقدس ساهمت في النفرة المعرفية وصناعة وعي نخبوي قادت هذه الأخيرة الجماهير في التصدي للصليبيين، فيجب على الباحثين اليوم الكتابة في الصراع وحقيقته وخلفياته، والمكتبة المعاصرة اليوم مليئة بالكتب المطبوعة وإن كان كثير منها محشوا بأخطاء نشرها أصحابها من غير تدقيق لتسارع الصراع الصهيوني الإسلامي، فإننا نحتاج لكتابة تجديدية نصل بها لنشر معرفة سليمة تصنع حركة تغييرية تحريرية.

وقد خلصت الدراسة إلى ما يلي:

1. تعتبر الكتابة في فضائل بيت المقدس من أقدم فنون التصنيف التي بدأت بشكل مستقل من القرن الثالث هجري، خلاف ما يدعيه رواد حركة الاستشراق التي يلمون إلى أنه لا قدسية واضحة لبيت المقدس وإنما هي نتيجة توجهات سياسية وأحداث صراع حضارية فحسب.

2. فضائل بيت المقدس مبثوثة بشكل كبير في كتب التفسير وكتب الحديث والتاريخ وغيرها قبل أن تستقل الكتابة بشكل مستقل، وكثير من الكتب التي جاء بعنوان فضائل الشام في حقيقتها هي فضائل بيت المقدس عاصمة الشام، وإنما تعرضت مكانة بيت المقدس لذوبان في مكانة الشام عند بعض العلماء.
3. نشطت الكتابة في فضائل بيت المقدس بشكل واضح خلال الحروب الصليبية، كحركة فكرية تهدف لنشر الوعي وتنبيه الناس بضرورة حماية الاماكن المقدسة، واشترك في كتابة هذه المصنفات أهل بيت المقدس وغيرهم من بقاع العالم الإسلامي، حتى أن بعضهم لم يرى بيت المقدس ولم يزرها أصلا، أنما تناقل له سماعات من غير مشاهدات مع رغبة في حث الامة ممن لم يزوروا بيت المقدس للهبة لحمايتها.
4. عناية المستشرقين خاصة اليهود منهم بمخطوطات فضائل بيت المقدس تفوق عناية الباحثين المسلمين لأهميتها في التعريف بالحالة النفسية والعلمية للصراع الإسلامي والصليبي، استعدادا منهم واستفادة من تاريخنا لمعاركهم القادمة.
5. لم يقتصر دور العلماء في فترة الحروب الصليبية على مهمة الوعظ والإرشاد وشحذ الهمم وتقوية النفوس فحسب وإنما حملوا السلاح، وقاتلوا حتى نالوا شرف الشهادة في سبيل الدفاع عن المسجد الأقصى المبارك. وهذا راجع إلى استشعارهم وفهمهم لركن الجهاد الذي رسخه الإسلام كما كان لهم الدور الرسمي مع الحكام.
6. ومن جهة أخرى شهدت المقاومات الإسلامية للحروب الصلبية فصلاً ثانياً من الدور الجهادي للفقهاء، عندما ساهموا في نشر المعرفية والوعي الجماهيري وكانوا يمثلون دور وسائل الإعلام في يومنا هذا، ومنه نشطت الكتابة في نوعين: الكتابة في فضائل الجهاد وهذا الصنف موجه لعساكر المسلمين وقادتهم من السلاطين، والكتابة في فضائل بيت المقدس وهو موجه لعموم الأمة لصناعة معركة فكرية تساند المعركة الحربية.

يوصي البحث بما يلي:

1. يوصي البحث أن يقوم أهل البحث والعلم في عالمنا الإسلامي خاصة رواد بحوث التراث بالمزيد من البحث في فضائل وخصائص بيت المقدس وفلسطين خاصة والشام عامة، وأن يحاولوا دائما استخراج المعاني الجديدة، والتي لابد أن عقول الباحثين عامرة بها، ذلك أن مثل

هذه المواضيع من اهم ما يسهم في المعركة المعرفية الفكرية ومن اهم ما يدعوا المسلمين إلى التشبث بأرضهم وبيت المقدس.

2. زيادة العمل على تحقيق المخطوطات التي جاءت في فضائل بيت المقدس، إذ ان الكثير منها لم يرى النور بعد، وبقي دفين المكتبات، كما يوصي البحث بإعادة تحقيق مخطوطات امهات ما كتب في فضائل بيت المقدس والتي حققها المستشرقون، من أجل إظهار الحقيقة وضمان وصولها سليمة لطلب العلم والقراء.
3. الدعوة لحماية ما بقي من كنوز المخطوطات خاصة في داخل فلسطين المعرضة لخطر النهب والسرقة الممنهجة، عبر تصويره وحفظها إلكترونيا وتيسير وصولها لطلاب العلم وباحثي التراث في مشارق الأرض ومغاربها، خصوصا وقد علمنا أن من كتب سابقا في فضائل بيت المقدس كان منهم المغاربة والمصريون والبغداديون.
4. الدعوة لإحياء الكتابة في فضائل بيت المقدس بنفس جديد يواكب تحديات القضية، ويؤدي نفس الدور المعرفي التوعي الذي أداه في السابق.
5. إحياء فكرة مجالس السماع بالإسناد لكتب الحديث ومصنفات العلوم وتخصيص دورات منها في كتب فضائل بيت المقدس.
6. دعوة مراكز الأبحاث لوضع ببليوغرافيا محدثة جديدة لأهم ما كتب في قضية بيت المقدس، وهذا استكمالا لجهد الباحثين كامل العسيلي وشهاب الله بهادر، حتى يتيسر لطلاب العلم والمعرفة عملية البحث الأكاديمي المنظم.

الهوامش

1 في تحقيقه لكتاب فضائل الشام لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الهادي المقدسي، منشورات مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد 49، السنة 19، 1995م ص95 مروان عطية.

2 المرجع نفسه، ص97.

3 نقلا عن محقق مثير الغرام ص11.

4 أمنة سليمان محمد البدوي، *كتب فضائل بيت المقدس في العهد المملوكي*، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، المجلد 21، العدد 02، يونيو، 2013، ص297.

5 أنظر: شهاب الله بهادر، *معجم ما أولف في فضائل المسجد الأقصى من القرن الثالث هجري إلى نكبة فلسطين*، منشورات مركز جمعة الماجد للدراسات والتراث، 2009م.

6 من تقديم تحقيق اسحق حسون لكتاب *فضائل بيت المقدس للواسطي* ص29.

7 كامل جميل العسلي، *مخطوطات فضائل بيت المقدس، دراسة ببليوغرافيا*، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، دار البشير، عمان، 1984.

8 مرجع سابق.

9 جواد بحر النتشة، *مكانة بيت المقدس بين نصوص الوحي وحركة الإنسان*، منشورات مركز دراسات المستقبل، ط01: 2006، الخليل، ص205.

10 عبد الهادي التازي، *القدس والخليل في الرحلات المغربية*، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، سنة 1997، ص 14.

11 المرجع نفسه، ص14.

12 ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، نشر وتحقيق المرحوم سعيد العريان.

13 رسالة المكناسي نشرها الدكتور محمود إبراهيم بالجامعة الأردنية ضمن مجموعة رسائل أخرى في كتابه القيم (*فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة*).

14 عبد الهادي التازي، *القدس والخليل في الرحلات المغربية*، ص 19.

15 النتشة، مرجع سابق، ص174.

16 محمود ابراهيم، *فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة*، منشورات معهد المخطوطات العربية، ص135.

17 ندوة بلاد الشام ومستقبل الإسلام، تنظيم مركز الامام الألباني للدراسات المنهجية والأبحاث العلمية، الأردن، ص21.

18 بهادر، مرجع سابق، ص 16 للمزيد أنظر: *أدب فضائل المدن في دراسات المستشرقين اليهود*، عبد اللطيف زكي أبو هاشم.

19 عيسى القدومي وخالد نواصره، مقدمة تحقيق كتاب *تحصيل الأنس لزائر القدس لابن هشام الأنصاري*، منشورات مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية، فلسطين، ص13.

20 أبو الفداء اسماعيل بن كثير، *تفسير ابن كثير*، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دار الفيحاء السعودية، ج 04، ص601.

21 القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، دار الكتب المصرية ط02: 1664، ت، أحمد البردوني. ج12، ص 267267.

22 مرجع سابق ص64.

23 انظر: بحث سيفان "قدسية القدس في الإسلام" من خلال بحث زياد أبو زياد *"المسجد الأقصى في الإعلام الإسرائيلي"* بحث مقدم إلى مركز الأبحاث الإسلامية ص (2 – 3).

24 أمنة سليمان البدوي، مرجع سابق، ص309.

25 جواد النتشة، مرجع سابق، ص 197.

26 ابن كثير، *البداية والنهاية*، ج12، ص322.

27 الحنبلي، *شفاء القلوب*، ص138.

28 ابن العماد، *شذرات الذهب*، ج5، ص73.

29 العليمي، *الأنس الجليل*، ج1، ص384. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص375.

30 العليمي، *الأنس الجليل*، ج1، ص308.

31 ابن واصل، *مفرج الكروب*، ج2، ص375.

32 ابن الأثير، *الكامل*، ج9، ص234.

33 مرجع سابق.

34 للمزيد أنظر: *دور العلماء المسلمين في المقاومة ضد الصليبيين في بلاد الشام* للباحثين: رياض مصطفى أحمد شاهين، وعبد الحميد جمال الفراني، (ورقة علمية) الجامعة الإسلامية غزة، قسم الأثار، أغسطس 2005، ورسالة: *جهود علماء مصر والشام في إصلاح المجتمع زمن الحروب الصليبية (692-491هـ/1097-1292م)*، الباحث عبد الفتاح عبد الله عاشور أبوجهل، الجامعة الإسلامية غزة، كلية الآداب، قسم التاريخ، 2010.

35 لا يزال هذا الكتاب مخطوطاً، موجود منه في المكتبة الظاهرية بدمشق برقم (3796عام) أربعة أجزاء فقط، كما أن في كتاب *الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية* مقتطفات صغيرة جداً مما اعتبره رسالة في الجهاد السلمي، ص281-282.

36 للمزيد أنظر: *كتاب الجهاد للسلمي – دراسة في مصادره ومنهجه ورؤيته للصراع*، عصام مصطفى عقلة، يوسف أحمد بني ياسين، مجلة دراسات، المجلد 41، العدد 03، 2014م، ص929.

37 ابن الصلاح، *طبقات الشافعية*، ج2، ص762. الذهبي، العبر، ج3، ص115.

38 ابن قاضي شهبة، *الكواكب الدرية*، ص57.

39 رياض مصطفى أحمد شاهين، مرجع سابق.

40 اسحق حسون، مرجع سابق، ص30.

41 الذهبي، *تذكرة الحفاظ*، ج4، ص109.

42 ابن شداد، *النوادر*، ص17، 70.

43 المقريزي، *السلوك*، ج1، ص356. العليمي، *الأنس الجليل*، ج1، ص407.

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
isravakfi.org